AYDI EST.

Translation – Open Learning

2021-2022

Third Year **Second Term**

2

اللغة العربية

28.05.2022

د. جومانة ربيع

Scanned with CamScanner

أسعد الله أوقاتكم...

الكتاب الذي سوف ندرس منه هو «بحوث في الأدب والرجال» للدكتور محمد قاسم، طباعة وزارة الثقافة حيث تهجعُ في هذا السِّفْر إحدى عشرة مقالةً في عُلُومِ العربيَّة وآدابها ورجالها وتحقيق نصوصها نُشِرَتْ في أَزْمَانٍ مُتَبَاعدةٍ في مجلاتٍ مختلفةٍ كان من الرأي جمْعُها بين دفَّتي كتابٍ لعلَّ الناظر فيها لا يعدمُ فائدةً منها تُشَبِّبُ العربيَة في روحه، وتُذْكي عشقها، وتكشفُ له عن بعض أسرارها المكنونة.

في المحاضرة السابقة أخذنا من الصفحة ١٣ وحتى الصفحة ٢٦.

ملاحظة: سيتم إدراج ما ورد في الكتاب المذكور أعلاه من الصفحة ١٣ وحتى الصفحة ٢٦ في نهاية المحاضرة لمن لا يملك الكتاب.

اليوم سنكمل مع بدوي الجبل وفي المحاضرة القادمة سنختار نصاً جديداً.

طبعاً تعرفنا في المحاضرة السابقة على رأي العديد من الشعراء والأدباء في بدوي الجبل واليوم سنكمل في موقف البدوي من الشعر الحديث.

والبدوي ينظر إلى الشعر على أنه روح...

«موقف البدوي من الشعر الجديد»

ولعله من النافع أن تلم بموقف البدوي من الشعر الجديد، وفلسفته الخاصة حول هذا المخلوق الجميل المسمى الشعر الذي تهيأت له أسباب ولادته.

يرى البدوي أن الشعر لا تعريف له، وكل تعريف للشعر جرأة على تميزه وتفرده. والشعر عنده ضرب من النبوة. إنه خيال ونغم وضوء وصور، ولكنه فوق ذلك شيء أشمل وأدق؛ إنه هدية الله إلى الروح. وحين يشبهه بالنبوة – والنبوة إلهام وغيب -يكاد يشعر أن تعبيره عن لهذا الشيء في الشعر يعتوره النقص، ويتجانف عنه الإطباق.

ويرى البدوي أن الوزن في الشعر العربي قطعة لا تتجزأ منه، وكل عبث بالأوزان هو عبث بالشعر وعبقريته وإلهامه. (هذه الفقرة مهمة للامتحان)

تعليق: الشعر هو إلهام وهو هدية الله إلى الروح ويروى البدوي أن الوزن في الشعر هو أمر أساسي وكل عبث بالأوزان هو عبث بالشعر وعبقريته وإلهامه

ويرى أن الأوزان أساور وعقود لا سلاسل وقيود، وقد استطاعت الأوزان العربية دون أن تتغيّر أن تستوعب ما في الجاهلية وصدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي من التحول في الحضارة وألوانها. والأوزان العربية في هذا العصر وفي كل عصر تتسع لكل جديد. (هذه الفقرة مهمة للامتحان)

Scanned with CamScanner

وحين قال البدوي:

أنـــا أبكـــي لكـــلِّ قيـــدٍ فـــأبكي

لقريـــضـــــــــي تغلـــــــــه الأوزان

- القريض: هو الشعر.

سُئل: ألا يدلُّ لهذا على أن الأوزان أغلال؟

فقال: قد تمر بالشاعر خاطرةٌ يمليها جوُّ القصيدة، حين تكلمت على القيود في قصيدتي مر هذا المعنى مرورًا. والواقع أنا لا أؤمن أنَّ الأوزان قيود، ولكنها نغم وعطر وجمال.

تعليق: يقول البدوي إن الأوزان الشعرية هي التي تعطي النغم والموسيقى والعطر والجمال للشعر.

يهيأ لي أنَّ البدوي يرى بحور الشعر العربي كوكب الأرض، إذ لست تستطيع أن تقيم أي نشاط إنساني إلا فوقه، وأي نشاط على غيره هو عمل في الهواء لا يلبث أن يتهاوى، وكذلك الأوزان فيها من السعة والرّحوب ما تطوي فيه بين أضلاعها سُلاف كل قريحة تحلّبت، ونزوة كل شاعر لمعت. وكل شاعر يحاول البناء على غير لهذه البحور إنما يبني في الهواء.

وقدر البدوي أن الشعر الحديث نشأ من أمرين: (مهمة للامتحان)

- **الأول** حب الإغراب، وهذه نزعة نفسية تستحوذ على كثير من نواحي النفس الإنسانية، وقد قيل: لكنه خالف فذكر وعرف، وأغرب فذكر واستُظرف.
- **الثاني** الوصول إلى الشاعرية عن طريق سهل لا جهد فيه ولا عناء.

حتى يستطيع الشاعر أن يكون شاعرًا لا بد له من الشاعرية، وهي لا تعلم، ولا تكتسب، ولا تدرس، هي منحة من الله، ولكنها تحتاج إلى أصالة في اللغة: أن يُلِم الشاعر بلغته إلمامًا صحيحًا، وأن يدرس كتب الأدب كالأغاني وآثار التوحيدي، وأن يقرأ شعر الأخطل والفرزدق وجرير، وأبي نواس وبشار، والمتنبي وأبي تمام والبحتري والشريف ومهيار.

تعليق: إذن حتى يستطيع أحدهم كتابة الشعر وصياغته يجب أن يمتلك الملكة الشعرية. وهناك أعمال تُرجمت من الفارسية إلى العربية أجمل بكثير مما كانت عليه في الفارسية وكذلك أعمال شعرية فرنسية تُرجمت إلى العربية بطريقة موزونة أجمل من الأصل كترجمة علي محمود طه وإبراهيم ناجي لقصيدة البحيرة لمارتين.

فشعراء ما يسمونه بالشعر الحديث باستثناء اثنين منهم لا يعرفون عن الأدب العربي إلا ما يعرفه تلميذ في مدرسة ابتدائية، حتى الصرف والنحو لا يعرفونه، فكيف يستطيع هؤلاء وهم يجهلون لغتهم، ويجهلون أدبها، وأساليب الإبداع فيها، أن يأتوا بشيء جديد.

إنَّ من يريد أن يجدد عليه أن يتقن القديم أولا، ثم إذا هو استطاع أن يجدد فليجدد، ثم

Scanned with CamScanner

نحكم.

والشعر الحديث نزوة عابرة ساعد عليها ضعف العناية باللغة العربية في المدارس.

إذا فقد الشعر ديباجته الصافية لم يبق شعرًا؛ إنَّ الديباجة الصافية وطن الشعر، ومن دونها يكون الشعر غريبا، أو بالأحرى لا يكون شعرًا على الإطلاق.

إن قراءة الشعر القديم تزين الديباجة وتعطرها، ولكنها لا تخلقها ولا تُبدعها. الأناقة لا تكون إلا في الشاعرية أولا، ثم بقراءة الأدب العربي القديم قراءة واسعة، وبوفرة المفردات، وتعود ضم اللؤلؤة منها إلى اللؤلؤة.

إن الأناقة «الصنعة» لا تكون إلا بعد أن تكون الشاعرية إلهاما أنيقًا.

إنَّ المدرسة والثقافة والمجتمع والتاريخ قد تخلق عالما، وقد تخلق فيلسوفا، وقد تخلق مخترعا، وقد تخلق أنواعًا متعددة من العظماء، ولكنها لا تستطيع أن تخلق شاعرا، فالله وحده هو الذي يخلق الشاعر.

فالشاعرية والامتراس بروائع الشعر القديم عمود الشعر وملاكه من وجهة نظر البدوي، وكان البدوي أنبه إخوته وأشدهم عارضة، يقف على ديوان من دواوين الفحول يتلقف ما فيه من غرر القصائد وبدائع المقطوعات، ويختزن كل أولئك في روحه، حتى إذا تحركت شهوة الشعر، وجاشت رغبة القول أمده الألفاظ الفصاح العتاق الأول مشبعا عليها من روحه مخزونه بما شاء من وشاعريته ما يضمن لها حياة رغيدة ينبو عنها الموت.

وقد روى زعيتر في مقدمة الديوان عن البدوي قوله له: **«وقد كنت رفيقي الدائم ليلاً ونهارا وأنا أنظم قصيدتي «البلبل الغريب» في فيينا، وقصيدتي «حنين الغريب» في جنيف، وكنت أستشيرك في كل نعم وأسارك في كل ألم، وأنتقي وإياك المفردات، ونغيّر هنا كلمة، ونبدل هناك كلمة، كما أنك رفيقي عند كل روضة مطلولة أورفة معسولة».** (هذه الفقرة مهمة للامتحان)

يلمع زعيتر فيها يحكيه عن الرجل إلى أنه يشبه شعراء مدرسة عبيد الشعر، أو أصحاب المحككات أو الحوليات الذين يرجعون البصر كَرَّتينِ في نصوصهم بعد ولادتها، بشيء من التحبير والأناقة والتغيير، ولعمري مثل هذا لا يصح في شعر البدوي المطبوع، وهو الذي آمن بأن الشعر طبع ومنحة إلهية لا صنعة ومكتسب بشري، ولئن صح فإنه يُشبه غسيل الأم لجنينها ساعة يخلق تذهب عنه ما غشيه من آثار المخاض، فتمسح جبينه بالماء لتكشف وتسرح شعره ليطل الصبح من مقلتيه ، وهذه الأعمال ونحوها من بالندى لا تضير الشاعر، ولا تعني أن القصيدة الجنين تكابد تشوها أو خلعا ولاديا البتة، إنما هو ضرب من خلاج الخاطر وتعادي المناظر استحسن لفيظة هنا ونَحَّى أخرى هناك.

البدوي: كان يكتب القصيدة مرة واحدة ولا يعدل ويحذف ويلائم المفردات بل مرة

Scanned with CamScanner

«خصائص لغة الشعر عند بدوي الجبل»

١. الاتساع في التضمين:

التضمين: إشراب لفظ معنى لفظ، فيعطى حكمه، وفائدته أن تؤدي كلمة معنى كلمتين. (التعريف مهم للامتحان)

وقال ابن جني (صاحب كتاب الخصائص): ومن الحمل على المعنى بابٌ واسعٌ لطيفٌ، وهو اتصال الفعل بحرف ليس مما يتعدى به؛ لأنه في معنى فعلٍ يتعدَّى به. ويسمى هذا الضرب من الحمل التضمين.

قال بدوي الجبل:

ولقـــد تركـــتُ الشـــعر وهـــو مُحَبَّـــبٌ

مـــذ صـــار يَفهـــمُ فيـــهِ كـــلُّ بليـــدِ

قال بعضُ من علق على البيت: «أبصر معي كلمة «فيه»، فهل يضعها هنا شاعر تمرس بالشعر واللغة أم يقول: يفهمه؟ ولكنّها حداثة لا يحاسب عليها».

لعمري لا يقول «يفهم فيه» إلا شاعر تمرس بأساليب اللغة العربية، وقرأ الخصائص لابن جنّي، ذلك أن البدوي ضمن «يفهم» معنى «يتقحم» أو «يلج» بأغوار الشعر، فعدَّاه بـ «في»، ليجعل لفظ «يفهم» دالا على معنيين؛ **الأول:** سلب الفهم عن المتقوّل في أمر الشعر، **والثاني:** تقحمه فيها لا يحسن من أمر هذه الصناعة. فانظر كيف اصطف المعنيان بعد تعدية الفعل «يفهم» بـ«في» ويبدو أن البدوي عَنى هذا الناقد اللغوي الذي يتعقب شعره، ويغفر زلله لحداثة سنه !!!

ترى هل يخطئ هذا النّاقد أبا كبير الهذلي حين قال في تأبط شرًا[1]:

حَمَلَـــت بِـــهِ فِي لَيلَـــةٍ مَـــزءودَةٍ

كَرهـــا وَعَقـــدُ نِطاقِهـــا لَم يُحلَـــلِ

مِمّـــا حَمَلـــنَ بِـــهِ وَهَـــنَّ عَواقِـــدٌ

حُبُـــكَ الثِيـــابِ فَشَـــبَّ غَـــيرَ مُهبَّـــلِ

لقوله تعالى «حملته أمه»؟ [سورة لقمان ١٤]، فأبو كبير عدّى «حمل» بالباء، والبيان الإلهي

[1] تأبّط شراً ؟ - ٨٥ ق. هـ / ؟ - ٥٤٠ م ثابت بن جابر بن سفيان، أبو زهير، الفهمي. من مضر، شاعر عدّاء، من فتاك العرب في الجاهلية، كان من أهل تهامة، شعره فحل، قتل في بلاد هذيل وألقي في غار يقال له رخمان فوجدت جثته فيه بعد مقتله.

Scanned with CamScanner

عداه بنفسه؟ ضمن أبو كبير «حمل» معنى «عَلِقَ»، فعداه بالباء، في إشارة منه إلى أنّ أم تأبط شرا حملت به، وهي كارهة، ولهذا يفسر شّر تأبط شرًا المستطير، وذلك معتقد عند العرب أنّ الرجل إذا أتى امرأة وهي لإتيانه كارهة، ثم وقع حمل، جاء المحمول بئيسًا شريرًا.

وهل يخطئ لهذا الناقد اللغوي الفرزدق في قوله:

كيف تراني قالبًا مجنّي

قد قتل الله زيادًا عنّي

ضمن «قتل» معنى «صرف»، فعداه بـ «عن»، أي صرفه عني بالقتل.

يمكن أن يأتي السؤال كالآتي: كيف نظر البدوي إلى الاتساع في التضمين في الشعر. فهنا يجب أن تتحدث بطريقة نظرية وبعض الأمثلة الشعرية مما سبق. (المطلوب فهم الأفكار وليس حفظها عن ظهر قلب).

٢. توظيفه ألفاظًا ذات دلالات تراثية غنية:

قال بدوي الجبل:

يا من يمن بوده والشهد - حين يمن - صاب

- **الصاب:** شجر إذا اعتصر خرج منه كهيئة اللبن، وربها نزت منه نزيه أي قطرة، فتقع في العين كأنها شهاب نار، وربها أضغف البصر، قال أبو ذؤيب:

نامَ الخَلِيُّ وَبِتُّ اللَيلَ مُشتَجِراً

كَأَنَّ عَينِيَ فيها الصابُ مَذبوحُ

- والمُشتَجِر: الذي يضع يده تحت حنكه مذكّرا لشدة همه.

فانظر إلى هذه اللفظة المأنوسة «صاب» كَم اختزنت من الدلالات، كيف سخرها البدوي نقيضا للشهد الذي هو العسل ما دام لم يعصر من شمعه، ولهذا الجمع الحاذق بين الضدين يزيد المعنى وضوحًا، ويدل على حركة متصاعدة داخل النص.

وقال أيضًا:

وخفَّ إلى ظِلالِكَ عَبدُ شَمسٍ

يريح شُجُونَهُ ظَمأى طِلاحا

- **الطلح:** مصدر طَلَحَ البعير إذا أعيا وكَلَّ، وبعير طِلح وطليح، وجمع طلح أطلاح وطلاح، ناقة طليح أسفار: إذا جهدها السَّيرُ وهَزَلَها.

إلى هنا تنتهي المحاضرة نلتقي في الأسبوع القادم

...

Scanned with CamScanner

ملحق المحاضرتين الأولى والثانية لمن لا يملك الكتاب المذكور في بداية المحاضرة

اللغة الشعرية عند بدوي الجبل

البيان ترجمان القلوب وروض النفوس، وبه استولى يوسف عليه السّلام على مصر؛ فإن العزيز لمّا رأى فصاحة لسانه وحسن بيانه أعلى مكانه، وأعظم شانه. وقد قيل: إن البيان قاض يحكم بين الخصوم، وضياء يجلو الظلم، وحاجة الناس إلى مواده كحاجتهم إلى الغذاء والماء. وقال الأعور الشني أو غيره:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلاّ صورة اللحم والدّمِ

وما قولك في نعمة كانت أول نعمة امتن الله بها على خلقه:﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾[سورة الرحمن: ١ -٤]. فالبيان يظهر ما يضمر في الجنان، وهو حاكم يفصل بالخطاب، وبه ينير الحق، بل ربا تلعب به الصيارفة والحُذَّاق، فصوروا الباطل في صورة الحق، ففي الحديث: «ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما سمعت»، وقد قال ابن الرومي:

في زخرفِ القول تزيينٌ لباطله

والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبيرِ

تقول هذا مُجاجُ النحلِ تمدحُهُ

وإن تعِبْ قلت ذا قَيْءُ الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما

سحر البيان يُري الظلماء كالنور

وليس أبرع القضاة وأوقدهم ذكاء بقادر على إدانة النابغة إذا سمعه يقول:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً

وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

وبدوي الجبل محمد سليمان الأحمد (١٩٠٢-١٩٨١م) واحد من بسط الله لهم في البيان بسطا، وبحبح له رزقه من موهبة القول الدفاق وبليغ الكلام، ودمت له الدرب، ووطأ له الأكتاف، فجاء شعره مثل الخمر تحدث عجائب في النفس وبدائع في الروح.

Scanned with CamScanner

وقد تدفقت أقلام الكتبة وشهادات المنصفين تثني على شعر البدوي الثناء الجمّ، وتنص على الشحر الذي يغشاه، والفتنة التي تحدثها في قلوب سامعيه.

فقد قال شفيق جبري: «إن بدوي الجبل شاعر لا يدانيه شاعر من شعراء لهذا العصر. في شعر البدوي ديباجة الشريف الرضي، والشريف الرضي أشعر شعراء قريش، لا، بل هو شاعر قريش».

وقال أحمد شوقي: «ده شاعرٌ أفهمه».

وقال بشارة الخوري: «إن الشعراء في سورية كأصابع الكف الواحدة عددا وحجها، وبدوي الجبل إحدى هذه الأصابع، في نفسه شاعران إذا أحدهما للقديم اعترضه نصير الجديد، فها خرجت القصيدة من نفسه انتصر إلا وعليها طابع الشاعرين»

وقال عمر أبو ريشة: «ديباجة مشرقة، وأسلوب متين، وإحساس مرهف، يقف في الصف الأول من شعراء العالم العربي».

وقال شاكر مصطفى: «هذا سيد شعراء العرب دون منازع. إنه الحجة الواحدة الباقية في يد المدرسة الكلاسيكية. نسيج البحتري الموشى لم يكن له من مكان في هذا العصر لولاه. وهو يجر وراءه ربع قرن من أمجاد القافية. كل بيت عنده كالزهرة الأنيقة، كالكأس المترعة، فيها اللون والتويج النّضيد، وفيها العطر والنشوة الأخيرة. سألته مرة: أنى لك الشعر؟ فقال: من بيت أبي. إن أعجب ما فيه لغة مطواع تمنحه ما يشاء من اللفظ الأنيق حيث يشاء، ومعنى في نعومة الحلم الريان».

وقال محمد مهدي الجواهري ": «في العراق لم أحس بمنافسة أحد. لقد كنت أريد أن ألحق بالشعراء وأنا صغير، وغطيت عليهم وأنا كبير. أما في العالم العربي فربما كان شوقي من الناحية الفنية، وليس من الناحية النفسية أو السياسية أو ناحية الموهبة. أما بدوي الجبل فقد أحسستُ بضيق من وجوده، وحسبتُ له حسابا».

وقال شكيب الجابري: «شاعر فحل ديباجته صنعت من مخمل عريق لا يدانيه أي قماش آخر».

ولو ذهب المرء يستقصي مثل هذه الشهادات لكده ذلك، ولفاته أكثر مما قيده، ولا زلتُ أذكر أيام كنت طالبًا ترنم أستاذي شيخ العربية في بلاد الشام محمد أحمد الدالي بقصيدة البدوي «خالقة»، وكان بعض أبياتها يوقد فتنة يصطلي بها قلبه:

مـــــن نعماتـــــك لي ألـــــف منوّعـــــة

وكـــــلّ واحـــــدة دنيـــــا مـــــن النـــــور

Scanned with CamScanner

رفعتـــــني بجنـــــاحي قـــــدرة وهـــــوى

لعـــــالم مـــــن رؤى عينيـــــك مســـــحور

تعـــبّ مـــن حســـنه عيـــني فـــإن ســـكرت

أغفـــت علـــى سندســـيّ مـــن أســـاطير

أخـــادع النّـــوم إشـــفاقا علـــى حلـــم

حـــان علـــى الشـــفة اللميـــاء مخمـــور

وزار طيفـــــك أجفـــــاني فعطّرهـــــا

يا للطيـــــوف الغريـــــرات المعـــــاطير

وكان يقول عقب إنشاده بقلب ممتلئ وروح متوهجة:

«البدوي شاعر العصر غير مدافع ولا منازع».

ومما يُلحظ على تلك الشهادات أنها جاءت من معاصرين ومن شعراء، والمعاصرة التي يذكر أنها حجاب لم تمنع أولي النُهى من أن يذلوا بدلائهم مترعة بالحق، ولا يخفى ما يكون بين أبناء الصنعة الواحدة من تقارص وتنافس ربما أدَّاهم إلى أن يتجانفوا عن الحق، ومع هذا لم يتوان الشعراء المعاصرون للبدويِّ عن النَّص على فَضله وشاعريته، وقد قال السري الرفاء:

ومليحـــــةٌ شَـــــهِدَت لهـــــا ضـــــرائها

والفضـــــلُ مـــــا شَـــــهِدَتْ بـــــه الأعـــــداءُ

وأبو سليمان الأحمد علامة الجبل في عصره أدبًا ولغة وفقهًا وفلسفة، وأحد مؤسسي المجمع العلمي العربيّ بدمشق، وكان يلقب بالقاموس الحيّ لغزارة حفظه وقوة استدعائه لمعارف عصره، فقد كان حفظة لقلائد الشعر العربي الزاهي، وأنَّى للكرى أن يُساكن مُقلتيه قبل أن يقرأ أو يُقرأ له، وقد كانت قصائد البحتري سلاسل الذهب وروائع أبي الطيِّب ماثلة في صدره، وكان بيته كعبةً يؤمُّها قُصَّادُه من طلبة العلم ومُختلفِة الرأي.

أذكى الشيخ سليمان في بنيه حب المعرفة، وزرع فيهم غريزة التنقيب والبحث الدؤوب، حتى روي أن بعضهم رُبَّما عاف طعامًا أو جافى نومًا كي ينقب عن بيت من الشعر، أو يلتمس معنى كلمة احتدم خِلاف حول دلالتها.

وبلغ من إجلال الشيخ سليمان للغة القرآن أنه حمل أبناءه على التكلم بالعربية الفصيحة في كل حين، واستحثهم على حِفظ ما يستجيدُه من القصائد والمقطوعات.

Scanned with CamScanner

في هذه البيئة الزخارة بالعلم الفياضة بالعربية الصافية نشأ البدوي، فقرأ على أبيه دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام ومهيار الدّيلمي والرضي، واطلع على الأغاني، والأمالي، وخزانة الأدب، ووفيات الأعيان، ومروج الذهب، ومقدمة ابن خلدون، وتفسير الطبري، والكشاف، حتى ازدحمت معارف هذه الكتب في صدره، وسيظهر صداها وبريقها فيما قال بعد.

قالت فتاة غسان: «انكب على دراسة الأغاني وراح يقرأ ويحفظ، وأحب هذا الكتاب النفيس، كما أحب قراءة الشعر أني ثقفه، فكان يعب من مكتبة أبيه حينًا، ومن صدره أحيانا، أغرم بدواوين الشريف الرضي، والمتنبي، والبحتري، وأبي تمام، والحلّي، وأبي العلاء، وأبي نواس، وترجمة رباعيات الخيام للشاعر أحمد الصافي النجفي. أحب قراءة الكتب اللغوية كالخصائص لابن جنّي، وفقه اللغة للثعالبي، والجمهرة لابن دريد، والصاحبي لابن فارس. وقرأ أكثر كتب النحو والصرف: كتاب سيبويه، ومغني اللبيب، وملحة الإعراب للحريري، وألفية ابن مالك، وشرح ابن عقيل عليها».

واختلطت روح العلم مع أبيه مع طبيعة ساحرة خلابة وتراث عربي حاضر ماثل، فتفجرت الأنشودة الإلهية في روح محمد، فجعل الشعر ينداحُ من روعه كما ينداحُ ماء عين في الجبل عذبًا سلسبيلًا يسير أنَّى شاء لا يتأبّى عليه شيء. ومن لطائف ما يروى عنه مما يدل على خفة الروح وبداهة الجواب أنَّه ربما لذع من لا يقيم لسانه في النحو:

ومَـــنْ لـــيسَ نحـــويًا ولـــيسَ بمعـــرِبٍ
فلـــيسَ لـــهُ إلّا لـــجامٌ وبَردعـــهْ

وقال:

النحـــــو زيـــــن للفـــــتى
يزينـــــه حيـــــثُ أتـــــى
مَـــــن لم يكـــــن يفهمـــــهُ
فواجـــــبٌ أنْ يســـــكتا

إذن نحن أمام ثقافة عربية صرفه لا تشوبها شائبة تكدر صفوها، ولا تبهرجها ألوان أجنبية تشوش انسجامها، وبلغت لهذه المشارب من نفسه مبلغًا حتى كأنك في مواضع من شعره ترى المتنبي يطل عليك من شرفاته! وقد سئل البدوي " عن تشبيه قُرَّاء الشعر له بالمتنبي: ما وجه الشبه بينك وبينه؟ فقال: أنا لست متنبي القرن العشرين، لكل شاعر شخصية، فشخصية المتنبي متفردة مميزة، ولكل شاعر أصيل شخصية متفردة متميزة، فهمت ما هو وجه الشبه بين الشاعرين.

Scanned with CamScanner

وكثرة الألقاب التي أطلقت على بدوي الجبل منبئة عن منزلته الفنية الرفيعة، فكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، فأول هاتيك الألقاب ما أطلقه عليه الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة «ألف باء» الدمشقية حين وقّع قصيدته في المناضل الأيرلندي «ماك سويني» بـ «بدوي الجبل»، ولما سأله البدوي عن فعله هذا أجاب أن هذا التوقيع المستعار يحملهم على أن يقرؤوا الشعر للشعر، وأن يتساءلوا: مَنذا يكون لهذا الشاعر المجيد؟ وأنت في ديباجتك بداوة وأنت ابن الجبل!

وكان أكرم زعيتر رصيفه وصديق عمره قد أطلق عليه سنة ١٩٤٦ لقب شاعر العربية، وذكر أنه حين باح بهذا اللقب أمام إسعاف النشاشيبي أديب العربية تطلق وجهه غبطة ورضا وقال: «البدوي أجدر شاعر بهذا اللقب».

انطلق البدوي إلى محاريب الشعر بموهبة مختلطة بروحه ووجدانه ويزاد من الشعر العربي القديم وافر، فجاء شعره أوله مثل آخره نُضجًا لا تفاوت فيه، فحين سئلت الأديبة عفيفة صعب عن رأيها بشعر بدوي الجبل قالت: «عهدنا بكل شاعر أن يتدرج إلى النبوغ في الشعر تدرُّجا، فهو يقولُ أولًا، فيسمع ويشجع، ثم يتقدم إلى الإنشاد فيقبل في المحفل والمجمع، ثم يجري في الحلبة، فيسبق ويبرع. أما بدوي الجبل هذا فقد تمردت عبقريته على هذا الناموس، ناموس التدرج، رأيناه في السابقين، ومعدودًا على حداثة سنّه بين الفحول المقربين. فكأن الاستعداد الفطري في مجموع قومه تجمع في والده، ثم ظهر فجأة في نجله السيد محمد».

وقد ألمع أكرم زعيتر إلى هذه القضية في شعر البدوي، فقد كان النقاد القدماء يطلقون على من يتعاطى الشعر قبل امتلاك أسبابه: المُقَرْزِمْ، وأما البدوي فها عرفه الشعر قِرْزامًا، فلا تفاوت في بواكير شعره وما تأخر منه، فلهذا قال بشارة الخوري: «شعر البدوي أرجح من عمره»، وقال عبد القادر المغربي: «إنّه الشاعر الذي تمرد على ناموس التدرج».

والتدرج من سُنَّة الأشياء في سعيها إلى النضج والكمال، لم يكن بمنأى عنه كبار الشعراء، فهذا الأصمعي يصف شعر أبي العتاهية والتفاوت الذي فيه: «إنه كساحة الملوك يقع فيه الخرف والذهب». قال زعيتر: ولو رأى الأصمعي شعر البدوي لقال: لهذه ساحة لا خزف فيها؛ إنها سوق الذهب واللؤلؤ والمرجان.

ولا غرو فالشعر مثل مغاص اللؤلؤ الشعراء فيه يتفاوتون على قدر ما أتيح لهم من سمو المواهب ويقظة الروح ورقة الشعور ووقدة الحس، وصاحبنا البدوي قد بلغ من كل أولئك حظا قلها ظفر به معاصروه، وتمخضت قريحته في غيسان صباه وحُمَيَّا شبابه ما عجزت عنه قرائح غيره وقد بلغوا الأصيل من أعارهم.

مصادر اللغة في شعر البدوي

١- البيت الذي ترعرع فيه البدوي:

Scanned with CamScanner

حيث تشمخ الأشجار، وتفيض الشراء بدموعها بسخاء تبعث الطبيعة عطرها وأنغامها في هدوء وطمأنينة في قرية ديفة ١٩٠٣ ولد محمد الذي سيكتب الأدب العربي في معابده اسمه بحروف من نور.

يتحدر الرجل من أصلاب الغساسنة الذين نص على انتسابه إليهم:

وغسّـــــانُ العُـــــلا قـــــومي ولكـــــنْ
إلى آدابـــــك العُـــــرِّ انتســـــابي

وقال:

مَليحـــةَ الـــدَّلِّ مِـــنْ غسّـــانَ لا بَلِيـــتْ
شَمائِـــلُ الصـــيد مـــنْ أَقبـــال غـــسّانِ

على أن كل ذلك الشحر لم يكن ليسلم من أذى يشوبه، أو قلق يشتته، فقد عصفت بقلبه حوادث جسام من جراء ما كانت تشهده البلاد آنذاك من بغي الاستعمار الفرنسي، وما اعترى السياسة من مألوف أمرها، وهو أنَّ الحقيقة الخالدة فيها أنّه لا حقيقة، وأن الثابت فيها التغير المستمر.

قال العقاد:

عفـــوك اللهـــم لا خُلـــدَ هنـــا
ومتـــى كـــان خلـــود في قيـــود

ســـيظل الخلـــد وســـواس المنـــى
وصـــدى الليـــل وأحـــلام الرقـــود

البيئة الصافية والموهبة الفذة والوجع الذي انضاف إليها حمل البدوي على التغريد بأجمل ما يسخو به أنين الألم، فروحه التي تتبدد صبابة أثرت الأدب العربي بقصائد عيون غرر باقيات على الدهر، وما أكثر الأطيار التي تؤثر الصمت، حتى إذا فقفت إحدى عينيها صدحت بأروع ما يكون الصداح.

قال:

ومـــا حـــاجتي للكائنـــات بأســـرها
وفي نفـــسي الـــدّنيا وفي نفســـي الـــدّهر

ونفســـي لـــو أنّ الجمـــر مـــسّ إباءهـــا

Scanned with CamScanner

علـــى بشـــرها الـــريّان لاحـــترق الجمـــر

هذا بيت البدوي الذي جعل منه – كما يقول بودلير -طائرا حين يحط على الأرض يثقله جناحاه اللذان لا يلبثان أن يحملاه على التحليق في سمائه العُلويَّة.

٢- القرآن الكريم والحديث الشريف ونهج البلاغة:

تعلم الفتى محمد القرآن الكريم على شيخ – هو الشيخ عبد اللطيف شريف – في قرية عين التينة بقراءة حفص عن عاصم، واستظهر غير قليل من آيِه البينات، ولا ريب أن لهذا أثرا في صقل بيانه وصفاء شعره وإشراقة لغته.

قال بدوي الجبل " بدأت القراءة بالقرآن الكريم، ثم قرأت على أبي رضي الله عنه برغبة منه الحديث الشريف ونهج البلاغة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهو غاية الغايات في البيان، ثم قرأت على أبي بعد ذلك اللزوميات لأبي العلاء المعري، وكان معجبا بها، وله شرح على اللزوميات لم يكتب في اللغة العربية من طرازه عن أبي العلاء.

كان أثناء قراءتي يفسّر لي المفردات والمعاني، ويلفت نظري إلى جمال الصور، ويصحح لي كل خطأ أُخطِئة في التلاوة، ولا سيما عين المضارع. فلوالدي رضي الله عنه الفضل الأكبر في متانة لغتي العربية، وتفهمي ألوان البلاغة، وغناي بالمفردات، ومعرفتي بالموقع الذي تحلو فيه المفردة. قال بدوي الجبل:

نشأت في بيت علم وفقه، فتأثرت أول ما تأثرت بالقرآن الكريم الذي لا يمكن أن تشرق ديباجة الأديب إلا بالإدمان على تلاوته. ثم تأثرت بالحديث الشريف وبخطب الخلفاء الراشدين، ولا سيما خطب علي بن أبي طالب، كما تأثرت بخطب الحجاج وزعماء الخوارج.

وقد سئل البدوي مرة: ما الذي مكنك من البلاغة؟ فتمثل ما قاله عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد: حفظ كلام الأصلع!

يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان البدوي إذا أحاط بها يقرأ، وأتقنه، وجد نفسه في شغف لرواية ما حفظ، وإذا لقي أقرانه ورصفاءه حدثهم بما فهم، وأنشدهم ما حفظ، لكأن ما حفظ قصائد يجيش في صدره، فلا يهدأ من فورانه وازدحامه إلا من نفسه. أن يجد أذنا صاغية وقلبا واعيا حتى إذا أنشد استشفى وتقع غُلة ما في يشبه أن يكون الإنشاد صلاة يرتلها ويترنّم بنصوصها حتى إذا فاء إلى نفسه في خلواته سكن روعه.

٣- الطبيعة الحية:

ولدت الطبيعة الحية لديه معجمًا طافحًا بالألفاظ مترعا بالصور والمجاز، فالبلبل والأطيار والماء والحفيف والشوك والأيك والظل والجمر والكروم والربا والسماء والجنان والعطور والفجر والنور، كل أولئك ألفاظ انتشرت في شعره انتشار النسيم في البستان:

Scanned with CamScanner

لم أضِـــــق بـــــالهموم ذَرعًـــــا وهَـــــلْ
ضـــــاق بِشـــــتى عطـــــوره البســـــتان

وبلغ قاموس الطبيعة لهذا من نفسه أن سخره في غير مظانّه أغراض الشعر، فقال يهجو:

جنـــــة الشـــــوك لا تخادعـــــك رباهـــــا
ففـــــي كـــــل أيكـــــة ثعبـــــان

٤- الحضارة الجديدة:

عاش البدوي أضواء الحضارة الجديدة بكل ما لمع فيها من قناديل وحِراب وألوان، ومغترباته وتقلبه في العالمين في حواضر العالم: فيينا وجنيف وروما والأستانة وسواها أثرى الحركة والمجاز في المفردات والتراكيب، فالنّهدُ قارورة عطر، والله يتأنق ليخلق، والثغر يحنّ إلى ريقه، والخدان لا يشتهيان إلا لأنه ترك أوزاره عليها، والعينان لا تُسكران إلا لأنه سكب فيها أسراره، والأثام خفرات بيض وكأنها أقحوانات منضَّرة:

آثامـــك الخفـــرات البـــيض لـــو جليـــت
لطـــور موســـى لنـــدّت ذروة الطـــور

كأنّهـــا أقحـــوانات منضـــرّة
بمخضـــب عبـــق الريحـــان ممطـــرة

فانظر إلى الخفرات البيض في قول الطرماح:

لعمـــرك إني يـــوم ألطـــم وجههـــا
عـــلى نائبـــات الدهـــر جـــد لئيـــم

مـــن الخفـــرات البـــيض لم يُـــر مثلهـــا
شفـــاء لـــذي بَـــثٍّ ولا لســـقيم

كيف انتزعه البدوي من سياقه، وخلع عليه لبوسا جديدًا، وعرج به إلى سنوات من الجمال، وهدهده حتى جعل الخطايا حيية نقية طهورا لو تجللها الجبل الطاهر المقدس لازداد طهرًا على طهر، ولظل الماء يقطر فوق ماء!!

Scanned with CamScanner

وليست حوانيت العطارين ولا أقمشة التجار ولا حدائق قرطبة بأغنى من شعر البدوي صورا ملونة وأخيلة مطرزة:

في مقلتيـــــك سمـــــاوات يهدهـــــدها
مـــن أشـــقر النـــور أصـــفاه وأحـــلاه
ورنـــوة لـــك راح الـــنجم يرشـــفها
حـــتّى تـــرنّح ســـكر في محيّـــاه
لم تعـــرف الحـــور أشـــهى مـــن ســـلافتنا
رفّ الهجـــير نـــدى لمـــا ســـقيناه
مدلّـــه فيـــك، مـــا فجـــر ونجمتـــه!
مولّـــه فيـــك، مـــا قـــيس ولـــيلاه!
مـــن كـــان يســـكب عينيـــه ونورهمـــا
لتســـتحمّ روءاك الشـــقر لـــولاه
سمـــا بحســـنك عـــن شـــكواه تكرمـــة
وراح يســـمو عـــن الـــدنيا بشـــكواه
يريـــد بـــدعا مـــن الأحـــزان مؤتلقـــا
ومـــن شـــقاء الهـــوى يختـــار أقســـاه
هـــذا الســـلاف[٢] أدام الله ســـكرته
مـــن الشـــفاه البخـــيلات اعتصـــرناه

وسعت الحضارة مداركه، وأغنته طيوفها وأنداؤها بالألفاظ المهذبة، والصور الملونة:

أصـــبحت بعـــدهم حـــيران منفـــردا
والـــريح معولـــة واللّيـــل معتكـــر

[٢] السّلافة من الخمر أخلصها وأفضلها، وذلك إذا تحلب من العنب بلا عصر ولا مرث، وكذلك من التمر والزبيب ما لم يعد عليه الماء بعد تحلب أوله، والسلاف: ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر، ويسمى الخمر سلافًا، اللسان (س ل ف).

Scanned with CamScanner

إنّي أكـــــرّم شـــــعري في متارفـــــه
كمـــا تكـــرّم عنـــد المـــؤمن الســـور

هديّـــــة الله فيهـــــا عطـــــر جنّتـــــه
والخمـــــر واللّعـــــس النشـــــوان والحـــــور

أريـــــد حبّـــــا كنـــــار الحـــــقّ ماتهبـــــا
كمزبـــــد المـــــوج مـــــن شمّـــــاء ينحـــــدر

وقال ايضاً:

يســـألن باللهفـــة الغـــيرى علـــى خجـــل:
مـــن فجّـــر العطـــر منـــه حـــين أدمـــاه؟

كل أولئك المصادر الثرة اجتمعت في روح البدوي، ففاضت شعرا أعذب من الماء الزلال، فروحه تتجلى في أشعاره وتنسرب فيها حتى لتكاد تغري الناظر فيها أن يمد يده إليها يحاول أن يلمسها متوثبة في شرايين شعره!

لمّتْ

...

Page: مؤسسة العائدي للخدمات الطلابية

Group: مكتبة العائدي - التعليم المفتوح - قسم الترجمة

• مكتبة العائدي: المزة- نفق الآداب

• هاتف: 011 2119889

• موبايل + واتساب: 0941 322227

025528

Scanned with CamScanner